مجلة العلوم الإنسانية والأساسية
كلية الآداب والعلوم/ جامعة مصراتة
العدد الثاني 2010م

المباني الدفاعية في العمارة الإسلامية

أ. محمد مصطفى الخازمي*

المقدمة:

لقد برع المسلمون في مجال العمارة المدنية ، والعسكرية، أما من الناحية العسكرية فقد تفنن المعماري المسلم في عملية البناء والتحصن بداخله في أثناء الحصار ، ومواجهة العدو، فقد بدأ البناء في العصر ين الأموي، والعباسي، ولكن البروز الحقيقي لهذه المباني كان في العهد الأيوبي، إذ شهدت هذه الفترة ازدهاراً في المعمار العسكري الإسلامي وهذا راجع إلى الأعباء التي كانت ملقاة على عاتق الدولة الأيوبية، وذلك من قبل الخطر الإفرنجي، فلقد شيدت الأسوار حول المدن، وشيدت القلاع، والأبراج، والأربطة في مختلف البلاد الإسلامية، وخاصة في المنطقة الشرقية؛ لأن العدو غالباً ما يأتي من جهة الشرق.

وظلت هذه المباني على مر الزمن شـاهدة على عظمة المعمـار المسلم، الـذي قـاوم الأعداء من خلال تلك التحصينات، كما أن الأربطة هي نموذج معماري إسلامي خالص.

والبحث من المواضيع الهامة والجديرة بالدراسة والتحليل، وذلك من خلال تاريخها والمواد التي استعملت في بنائها، والجذور التاريخية التي تعود لها، بالإضافة إلى كيفية الإقامة في تلك المباني الدفاعية.

وقد تناول البحث المدن المسورة قبل الإسلام في الجزيرة العربية، النواحي الدفاعية للمساجد، والمدن الأولى، أبراج القصور ، والخانات، العناصر الدفاعية بما فيها الشرفات

---

* - قسم الآثار والسياحة بكلية الآداب والعلوم بالخمس

المسننة، والمدخل المنكسر، أو المنحني، والباب الحديدي المنزلق، القلاع، والأربطة كأبرز المباني الدفاعية.

المباني الدفاعية:

وهي التي تكفل للمدينة الحماية من خطر الأعداء، وقد قام المسلمون ببناء هذه الأبنية عندما بدأ التهديد البيزنطي للدولة الإسلامية، أي منذ القرنين التاسع والعاشر الميلاديين[1] إضافةً إلى هجوم المغول بقيادة (جنكيز خان) الذي بدأ زحفهم على البلاد الإسلامية في حوالي سنة 1218م، ومن هنا بدأ القيام ببناء الأبنية الحربية في البلاد الإسلامية[2]، ومنها سوريا، ومصر، وتونس...

المدن المسورة قبل الإسلام في الجزيرة العربية:

والجدير بالذكر أن المباني الدفاعية قد عرفت قبل الإسلام، وذلك في عدد من المدن في الجزيرة العربية مثل: مدينة (تيماء) الواقعة بقاياها في الجزء الشمالي الغربي من بلاد الحجاز، وكانت مركزا حيوي في الحضارة العربية القديمة، وذلك لوقوعها على طريق التجارة التي تربط بلاد بابل بمصر ، ومكة، والشام، وهذه المدينة كانت مسورة بسور ضخم مبني بالحجارة المصقولة الضخمة؛ حيث يبلغ امتداده أكثر من ثلاثة كيلو مترات وارتفاعه في بعض المناطق وصل إلى أربعة أمتار، وهذا السور مدعم بأبراج مستطيلة المقطع، وعلى مسافات متقاربة، ويحيط بهذه المدنية جبال مرتفعة أشهرها جبل (غنيم) ويتميز بسفوحه الصخرية الصلدة، كما وجد عدد من أبراج المراقبفوق سلسلة من التلال المحيطة بالمدينة[3].

ومن المدن المسورة أيضاً مدينة (ثاج) وتقع في الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية بالقرب من مدينة (الجبيل) الساحلية على الخليج العربي، ويحيط بمدينة (ثاج) سور ضخم يبلغ عرضه ثمانية أمتار، وطوله ثلاثة كيلو متر ات، ولم يزل منه سوى 2.5 كيلو متر، وهذا السور قد بني بكتل حجرية ضخمة، ويبلغ طول بعضها حوالي المتر الواحد، ودعم هذا

1- أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب المسلمين، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1977ف، ص 105.

2- نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، لبنان، 1977ف ، ص 143.

3- طاهر العميد، علاقة العمارة العربية قبل الإسلام بالعمارة الإسلامية، أنظمة الم دينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، دار الحكمة، بغداد، 1991ف، ص ص 86-87 .

السور بأبراج نصف أسطوانية شيدت على مسافات متساوية على طول امتداد السور، وأبراج الزوايا أضخم من أبراج السور، كما أن مدينة (جرش) تعد من المدن العربية القديمة التي كانت محصنة بسور منيع لا يزال بعض أجزائه ظاهرة، ومن هنا فإن اقتحام تلك المدن كان من العسير جداً، وذلك لأن السور كان مشيدا بالحجارة الضخمة[1].

النواحي الدفاعية للمساجد والمدن الأولى:

يعتبر المسجد في بداية الإسلام مركز المدينة الديني، والإداري، والسياسي والاجتماعي، ومن خلاله تد ار جميع أمور المسلمين، ومن أبرز المساجد التي كان لها طابع حربي مسجد (سامراء) في العراق الذي يعد من أكبر المساجد الإسلامية، حيث يبلغ طول أضلاعه (260مترا، 180مترا)، ويحيط به من الخارج سور من الطوب يبلغ ارتفاعه عشر ة أمتار، وتدعمه أبراج نصف دائرية بارزة عن الجدران بحوالي مترين، وعددها أربعون برجاً ، والغرض منها للمراقبة، والتصدي للأعداء من خلالها بالرمي بالسهام شكل (1) [2].



شكل (1) جامع سامراء، (علام، 1977م، ص: 59).

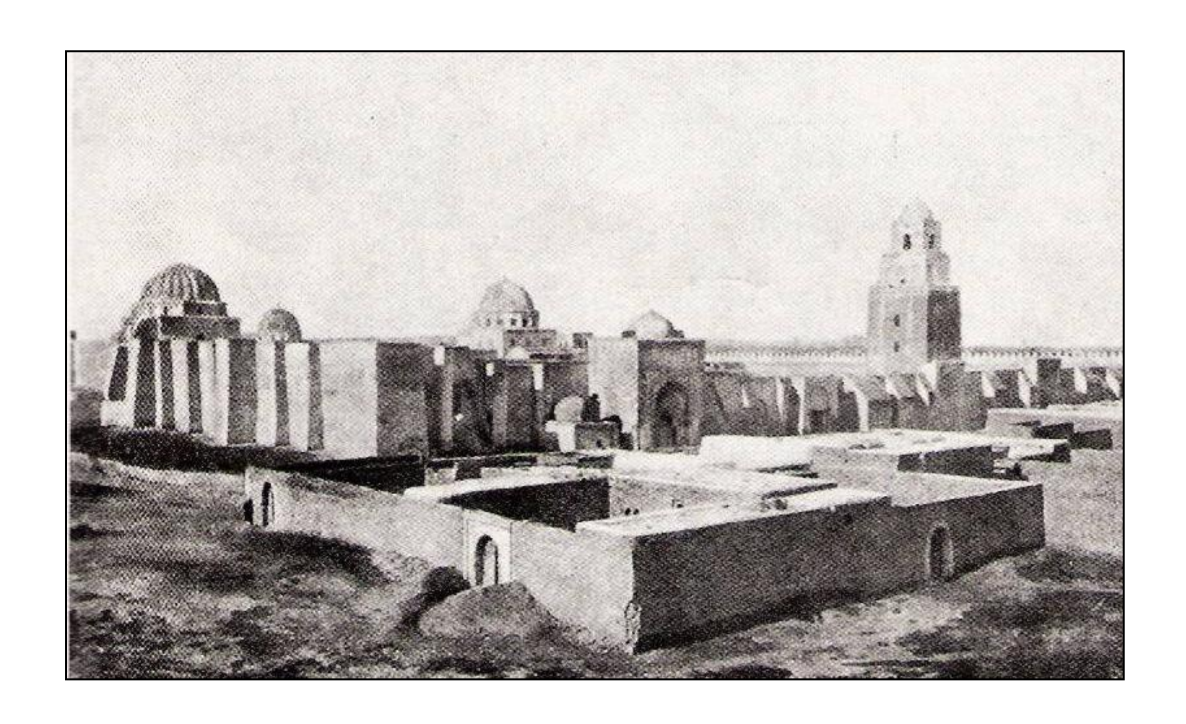
ومن المساجد التي لها طابع حربي مسجد القيروان في تونس، ويسمى (بجامع عقبة) لأن عقبة بن نافع بناه عندما خط مدينة القيروان سنة (50 هـ- 670 ف) [3] والمسجد من الخارج في غاية الجمال، حيث تتخلله الدعامات من مختلف الأحجام والأشكال، بالإضافة

1- طاهر العميد ،مرجع سابق، ص 88.

2- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص 57.

3- أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 70.

لعدم انتظام توزيعها، شكل (2)، وهذه الدعامات أعطت قوة وصلابة للجدار، ويبلغ ارتفاع الجدار من (8-10) أمتار، وهذا ما يجعله في مأمن من أي خطر خارجي[1].



شكل (2) مسجد عقبة بن نافع الفهري في القيروان، (كونل، 1966م، ص 34)

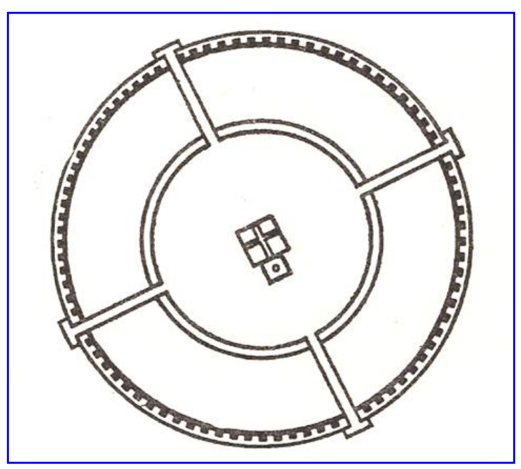
وبالنسبة للمدن المسورة والدفاعية، فإن بناء المدينة الإسلامية كان يستدعي إقامة أسوار من حولها وأبرا ج للمراقبة، وذلك لتفادي أي هجوم قد يحث، ومن أهم المدن المحصنة مدينة (بغداد)، حيث بنيت على شكل دائرة كاملة ، وفي مركز الدائرة يوجد قصر الخليفة العباسي المنصور، ويحيط به قصور القواد، ورجال الدولة، ثم توجد الأسوار[2]، واحتوت المدينة على سورين دائريين وخندق، واحتوى السور على أربعة أبواب، وهي باب الكوفة في الجنوب الغربي، وباب البصرة في الجنوب الشرقي، وباب خرسان في الشمال الشرقي، وباب الشام في الشمال الغربي، وأقيم على السور أبراج وعليها شرفات [3]، وعند الدخول للمدينة يجتاز الداخل الخندق عن طريق قنطرة موصلة إلى مدخل طويل ضيق مغطى بقبة نصف أسطوانية،

1- ك.كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1984ف، ص ص 331 -332.

2- أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 32.

3- رمزية محمد الأطرقجي، بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1975ف، ص 95.

ولا يصل الداخل إلى الفناء المكشوف مباشرة، بل عليه أن ينحرف إلى اليسار من المدخل، وهذا المدخل يسمى المدخل المنحني أو المنكسر، ومن هنا بدأت مدينة بغداد به ذا التصميم محصنة ومنيعة[1]، شكل (3).



شكل (3) مخطط لمدينة بغداد كما كانت أيام أبو جعفر المنصور
(كونل، 1966م، ص 2)

وتعد مدينة القاهرة من المدن لمحصنة ؛ حيث بناها جوهر الصقلي سنة (358هـ-969ف)[2]، وهي على شكل مربع تقريباً، وأول ما شيد بها القصر الكبير الشرقي ليكون سكناً للخليفة ، وأتباعه، ومقراً لدواوين الحكم [3] ، وقد أقيم حول مد ينة القاهرة سور من الطوب لم يبق منه أية آثار، ففي الشمال كان يطل السور على أرض منبسطة، ومن الشرق يوجد جبل المقطم، وهو الجبل الوحيد في مصر، والسور الجنوبي كان يبعد 1.5 كيلو متر شمال مدينة القطائع الطولونية [4]، وقد أقيمت عدة أبواب على هذا السور فبعضها ما زال قائما، وبعضها الآخر تهدم، ففي الجهة الجنوبية نجد باب زويلة، وهو ما زال قائم ا، وفي الجهة الشمالية يوجد باب الفتوح، وباب النصر، وهما ما زالا قائمين، وفي الجهة الشرقية يوجد باب البرقية، والباب الجديد، وفي الجهة الغربية باب القنطرة، وباب السمادة، وقد أضيف سور ثان

1- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص55.

2- صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة، بيروت، 1984ف، ص 73.

3- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص ص 108- 109 .

4- صالح لمعي مصطفى، مرجع سابق، ص 73.

في الفترة من (480-486هـ)، (1087-1093ف)، وينسب إلى الوزير (بدر الدين الجمالي)، وليضاف هذا السور بالزيادات التي أضيفت للقاهرة في الجهتين البحرية والقبلية، وهذا السور كان مبني من اللبن وأبوابه من الحجارة وما زال قائم ا جزء منه، ويضم بابي النصر والفتوح[1].

باب النصر يحفه من الجانبين برجان مربعا ن، واستعمل في تغطية المدخل قبة نصف أسطوانية، وزين باب النصر برسومات للآلات الحربية، وبالنسبة لباب الفتوح فإنه يحفه من الجانبين برجان دائريان، وغطي المدخل بقبة محمولة على مثلثات في الأركان واستعملت كوابيل[*] حجرية على هيئة رأس الكبش، وباب زويلة أقيم أمامه باب منزلق وذلك حتى يحد من سهولة تقدم حركة العدو، وداخل الأبواب توجد حجرات أسقفها معقودة بعقود نصف دائرية ومتقاطعة، كما زودت الأبواب والأسوار بفتحات ، وأبراج للمراقبة والحراسة، ويتراوح ارتفاع السور من الأرض حوالي من (9-11.5متراً) ويبلغ سمك الحائط ، أو الجدار بين (3.5-4.00أمتار)، ويعلو السور شرفات ، وهي لغرض النظر من خلالها ، والتصويب على الأعداء بواسطة السهام، كما استعملت الأعمدة داخل الأسوار، وذلك للتقوية والربط، وكانت هذه الطريقة مستعملة في المباني الرومانية[2].

أبراج القصور والخانات:

لقد كانت للقصور والخان ات على حد السواء أشكالاً دفاعية ؛ فالنسبة للقصور الإسلامية، فإن مخططها عبارة عن شكل مربع يحيط بها سور تعلوه أبراج ركنية وضلعية دائرية، أي أبراج في الأركان، وأبراج على طول الجدار، ولها مدخل يوصل إلى فناء مكشوف يحيط به كل المرافق[3]، ومن أمثلة القصور المحصنة قصر (المشتى)، وهو نموذج للقصر الصحراوي [4]، ويقع في الصحر اء الأردنية جنوبي عمان [5] وكان له سور خارجي مربع يبلغ طول ضلعه

1- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص 109.

*- كوابيل: مسند بارز من حجر أو خشب يركز في الجدار ليحمل الشرفات أو العقود (عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، دار جروش، بيروت، 1988م، ص 322).

2- صالح لمعي مصطفى، مرجع سابق، ص ص 73- 74.

3- جمعة أحمد قاجة، موسوعة فن العمارة الإسلامية، دار الملتقى، سوريا، 2000ف، ص 129.

4- أرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966ف، ص 32.

5- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص 31.

144متراً، ويحيط به سور مزدوج بأبراج نصف دائرية، ومدخل القصر في الجهة الجنوبية [1]، أما قصر (الحير) الغربي، وهو الآخر أشبه بالحصن، وله سور عال ، وعلى أركانه توجد أ براج مخططها ثلاثة أرباع الدائرة وطول ضلعه 70متراً، وله باب واحد، وهذان القصران يعودان للعصر الأموي، ومن أمثلة القصور المحصنة في العصر العباسي قصر (الأخيضر)، حيث يقع في جنوب غرب كربلاء على بعد 50كم[2]، ويشتمل القصر على سور خارجي على شكل مستطيل، وفي كل ضلع من أضلاعه بوابة، وفي أركان المستطيل أربعة أبراج مستديرة، وبين كل برجين يوجد عشرة أبراج نصف دائرية، وهي من غير أبراج الباب، والباب ملاصق للضلع الشمالي للسور[3] وقد بني هذا القصر بالحجارة [4]، وهناك العديد من القصور الأخرى التي احتوت على الأسوار المنيعة، والأبراج التي تحتوي على الفتحات.

وبالنسبة للخانات[*] وخاصة التي كانت تقام خارج المدن على طريق القوافل فكان لا بد من تحصينها من أي خطر، سواء كان من اللصوص ، أم من الأعداء؛ ذلك أنها كانت تبنى من الحجارة الكلسية ، أو البازلتية، أو من القرميد [*] المشوي، وتصميم الخان كان عبارة عن شكل مربع المسقط إجمالاً، وغالباً ما كان على طابقين ، وفي أركانه أبراج للمراقبة وللدفاع، وقد يحيط به سور خارجي مدعم، وبوابة مصفحة ضخمة محكمة الإغلاق ليلاً، وكان كأنه حصن صغير [5].

1- أبو صالح الآلفي، الفن الإسلامي أصوله- فلسفته - مدارسه، دار المعارف، لبنان، 1974ف، ص 154.

2- جمعة أحمد قاجة، مرجع سابق، ص ص 136- 138.

3- أبو صالح الآلفي، مرجع سابق، ص 168.

4- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص 61.

[*] - الخانات : جمع خان وهو مكان مبيت المسافرين مع بضائعهم ويضم مكان لإيواء العربات واصطبلات للحيوانات . انظر (عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 152).

[*] - القرميد: هو طين مجفف بالشمس أو بالنار تبنى به الجدران والدعائم (عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 314).

5- قاجة، مرجع سابق، ص 154- 155.

العناصر الدفاعية:

هناك العديد من العناصر الدفاعية التي استخدمت في المساجد ، والقصور والخانات، وبصفة عامة فقد استخدمت في المباني المدنية ، والمباني الدينية، وفي تحصينات المدن وأبوابها ، ومنها:

الشرفات المسننة:

وهي وحدات هندسية تحيط بأعلى المباني، وانتشر استخدامها في العمارة الحربية والدينية، والمدنية على حد سواء، وهي من الظواهر الأساسية للع مارة الإسلامية ؛ لما فيها من نواحٍ جمالية، واستعملت هذه الشرفات لتتويج الواجهات قبل الإسلام في العمارة الآشورية ، والإيرانية، والرومانية، وتوجد عدة أنواع من الشرفات منها : المورقة، والمائلة المسننة، وتعد المسننة من أهم أنواع الشرفات التي استخدمت في العمارة الإ سلامية، وقد انتقلت إلي نا من الفن الساساني، وترجع أقدم الشرفات الإسلامية إلى العصر الأموي، إذ توجد في قصر الحير الشرقي، كما وجدت في مدينة سامراء، حيث عثر على بقايا تتوج جزءاً من الجدار الجنوبي للفناء الكبير في قصر المعتصم ؛ المعروف بالجوسق الخاقاني، أما في العصر الفاطمي فقد استعلمت الشرفات المسننة في الجامع الأزهر ، وفي واجهات بين الص الات، واستعملت الشرفات في جامع الحاكم بأمر الله، وهي على نوع ين، نوع تتشابك فيه العقود على هيئة دوائر متماثلة، والنوع الآخر رصعت قطع الآجر على هيئة مدرج هرمي من خمس درجات، وقد فتح ت في منتصف الشكل الهرمي نافذة ذات عقد منكسر، وفي العصر الأيوبي استمر استخدام الشرفات المسننة، ولكن يلاحظ زيادة عدد درجاتها المسننة، إذ أصبحت تتكون من سبع درجات، حيث وجدت في ضريح الإمام الشافعي، وضريح الصالح نجم الدين أيوب[1].

وهذه الشرفات في الأصل كانت له ا وظيفة حربية، إذ كانت تقام في أعلى الحصون ، والمساجد، والأسوار، والمآذن، التي تمكن من رؤية العدو من الفتحة ، أو النافذة الصغيرة بين أسنان، أو فتحات البناء، كما تسمح بتسديد النبال نحو العدو المهاجم ، وفي الوقت نفسه تؤمن للمدافع الحماية اللازمة من طلقات السهام[2].

1- عبد الناصر ياسين، الفنون الزخرفية الإسلامية بمصر في العصر الأيوبي، دار الوفاء، إسكندرية، 2002ف، ص403- 404.

2- سعد زغلول عبد الحميد، العمارة والفنون في دول الإسلام، منشأة المعارف، 1986ف، ص 216.

السقاطات:

السقاطة: هي عبارة عن شرفة تبرز من وجه جدران الأسوار، وأرضية هذه الشرفة بها فتحات مفرغة، بحيث يسهل على المدافعين أن يشرفوا على المهاجمين ، ويسقطوا على رؤوسهم الأحجار، والزيت المغلي، والسهام، وهي فكرة التشققات نفسها، إلاَّ أن التشققات كانت فوق الباب؛ لكي تلقي من خلالها المواد الكاوية، والملتهبة على الأعداء المهاجمين(1)، ووجدت السقاطات في قلعة حلب، وقلعة دمشق(2).

المدخل المنكسر (الباشورة):

وهذا الأسلو ب اتبع في معظم البيوت الإسلامية ؛ لكي يكون وسط البيت غير مكشوف، وليحافظ على السترة لمن في البيت، كما استعمل المدخل المنكسر في أبواب المدن الإسلامية، مثل مداخل مدينة بغداد المدورة، حيث كانت تحوي على مدخل منح ني أو منكسر؛ ليعرقل تدفق العدو على المدينة، وبالتالي يسهل عملية القضاء عليه ، كما وجد أيضاً في أسوار القاهرة وقلعتها(3).

الباب الحديدي المنزلق:

وقد استخدم الباب الحديدي المنزلق في القصور والحصون، للحماية والمنعة لذلك المكان، وكان يفتح من أسفل إلى أعلى بواسطة بكرتين في كل زاوية، وهذا الباب الحديدي يحمي الباب الخشبي في أثناء هجوم العدو، ووجد في مدخل مدينة بغداد(4).

1- أبو صالح الألفي، مرجع سابق ، ص 184- 185.

2- عبد الكريم فرج، القلاع الأثرية في سوريا، مجلة آثار العرب، العدد السابع والثامن، الدار الجماهيرية ، طرابلس، 1994ف، ص ص 116- 117.

3- نعمت إسماعيل علام، مرجع سابق، ص 55.

4- رمزية محمد الأطرقجي، مرجع سابق، ص 98.

القلاع:

وهي من المباني الدفاعية التي انتشرت في ربوع الأراضي العربية، و تضم سوريا أكبر مخزون من هذه القلاع؛ حيث تصل إلى ما يقارب الأربعين قلعة، ومن أهم القلاع ما يأتي[1]:

– **قلعة حلب**: وتقع في مدينة حلب في شمال سوريا، وهي من أكبر قلاع العالم العربي حيث شيدت بمخطط عربي إسلامي أصيل، وهذه القلعة قديمة جداً، فلقد دلت المكتشفات الأثرية فيها على أن تاريخها يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وقد أصلحها ، وحصنها سيف الدولة الحمداني، واتخذها مقراً لإقامته، وازدهرت في عهد الظاهر غازي بن صلاح الدين في سنة 1209ف[2]، وتعد قلعة حلب من أهم القلاع في منطقة الشام، وقد قال فيها عماد الدين الزنكي كلمته الشهيرة : " لو سقطت حلب بيد الفرنجة لما بقي من بلاد الشام شيء في أيدينا"، وقد احتوت الواجهة الأم امية على أبراج رائعة ، ومدخل متقن ويتصل بابها بواسطة جسر حجري، وحصنت الواجهة الأمامية، ويحيط بالباب برجان ضخمان، وبه دهليز ، أو ممر ينعطف خمس مرات، ويفترق منه ثلاثة أبواب ، ونقش فوق الباب بعض الحيوانات، وتضم القلعة قاعة العرش، وحمام، ومسجد[3].

– **قلعة دمشق**: وتقع في مدينة دمشق ، وقد شيدت في العصر السلجوقي، وأقيمت على أنقاض حصون قديمة، ويعود تاريخها إلى العهد الروماني، وقد استخدمها حكام دمشق حصنا منيعا للإقامة لأكثر من مئة عام[4]، وهي على شكل مستطيل أبعاده 220×150م وتتألف من اثني عشر برجاً، ولها بابان رئيسيان، الأول من الجهة الشرقية ، والثاني من الجهة الشمالية، والباب الغربي كان لا يستخدمه إلا السلطان، وكان يسمى باب السر وتتميز قلعة دمشق بأبراجها الشاهقة التي تتألف من عدة طوابق، العليا منها تستخدم لسكن الجنود، والسفلى تستخدم مخازن للتموين في أوقات الحرب والحصار[5]، وهناك العديد من القلاع في سوريا ،

1- عبد الكريم فرج، مرجع سابق، ص 117.

2- عبد الكريم فرج، مرجع سابق، ص ص 117- 118.

3- جمعة قاجة، مرجع سابق، ص ص 112- 113.

4- عبد الكريم فرج، مرجع سابق، ص 118.

5- جمعة قاجة، مرجع سابق، ص 213.

مثل قلعة بصرى، قلعة الحصن، وقلعة حارم، وقلعة جعبر ...[1] إلخ، ولكننا أكتفينا بمثالين عن أبرز القلاع.

الأربطة:

رباط، أربطة، رباطات، ربط : وتعني في الأصل إعداد الخيل وربطها ، ملازمة لمنافذ البلاد سواء كانت منافذ بحرية، أو برية، وجاهزة للجهاد في أية لحظة، ولكن فيما بعد أطلقت على البناء الذي يضم المقاتلين المرابطين [2]، وقد ورد في القرآن الكريم بعض الآيات ما يؤيد ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[3].

والرباط نوع من العمائر الدينية ظهر في العمارة الإسلامية، وهو ابتكار معماري إسلامي، ويسكنه المجاهدون في الإسلام [4]، وتمثل هذه الأربطة خطوط ا دفاعية متقدمة عن البلاد، ويقيم في هذه الأماكن الجنود مع عائلاتهم بشكل دائم ، ويمارسون حياتهم الدينية والمدنية، وفي الوقت نفسه هم مستعدون دائماً لمواجهة أي عدو [5]، ثم تطور الأمر بعد ذلك؛ ذلك؛ حيث بنيت الأربطة داخل المدن ، واجتمع فيها خاصة المتصوفة في الإسلام، حتى حدث خلط بينها وبين الخانقاوات [*] في بعض الأحيان [6] ملمدعا المستشرقين إلى تسميته بالدير، مع أن الإسلام لا يعرف الرهبنة، وكانت الرباطات حصوناً وأبراجَ مراقبة واتصالات، ومنارات، ومحطات بريد، حيث يقول المقدسي إن لهذه العمائر دور ا كبيرا في إرسال الأخبار الملحة إلى الحواضر، وفي الإنذار المبكر عند تعرض البلاد للخطر: "فإن كان ليلاً أُوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة ، وقد رتب فيها أقوام، فتوقد المنارة التي في الرباط، ثم التي يليها، ثم الأخرى فلا يمضي وقت قصير إلا وقد

1- عبد الكريم فرج، مرجع سابق، ص118.

2- عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 195.

3- القرآن الكريم، سورة الأنفال، من الآية 60.

4- مصطفى عبد الله شيحة، الآثار الإسلامية في مصر، منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصر الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992ف، ص19.

5- جمعه قاجة، مرجع سابق، ص 209.

*- الخانقاوات: جمع خانقاه، بناء ديني يدرس فيه العلوم الدينية، عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص157.

6- مصطفى عبد الله شيحة، مرجع سابق، ص 19.

أنفر في القصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة"[1].

واشتمل الرباط على مكان للصلاة وفناء ، وفي بعضها وجدت أواوين صغيرة وحوض للمياه، وبعض حجرات للسكن[2]، ومخططها عبارة عن شكل مستطيل ومسورة ومزودة بأبراج ركنية وضلعية، ولها مدخل واحد، وطابقان اثنان، ولم يبقَ منها إلا أثران في تونس ، وهما رباط سوسة، ورباط المنستير[3].

رباط سوسة:

وهو من المباني الإسلامية الأثرية المهمة في شمال أفريقيا، وأُقيم في شمال مدينة سوسة على ساحل البحر المتوسط، وهو ما زال قائماً، ويعرف (بقصر الرباط)، وقد أنشأه الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة (206 هـ-821ف)، وخصص هذا الرباط كسائر الأربطة للمرابطين المجاهدين المتفرغين للجهاد والدفاع ومقاتلة الأعداء، وفي الوقت نفسه كانوا من المتعبدين طوال اليوم، وخصصت أوقاف كثيرة للصرف على المرابطين فيه، واتبع هذا النظام في الرباطات التي انتشرت في شمال أفريقيا زمن الأغالبة[4].

هذا الرباط مبني بالحجارة ومحاط بأسوار ضخمة ارتفاعها ثمانية أمتار ونصف المتر وعرضها (1.35) متر، وتنتهي هذه الأسوار من الأعلى بشرفات مستطيلة لحماية الممر العلوي، وفي كل ركن من الأركان الأربعة برج ضخم مستدير الشكل، ما عدا برج الركن الجنوبي الشرقي فإنه كان مربع الشكل ؛ ليكون قاعدة لمنارة الرباط ذات البدن الاسطواني الشكل، شكل (4)، ويتوسط الأضلاع الشمالية والشرقية والغربية أبراج نصف اسطوانية ، بينما البرج الأكبر الواقع في الضلع الجنوبي مستطيل الشكل بارز عن الجدار، ويتوسط الواجهة؛ حيث فتح فيه مدخل الرباط [5]، وزود المدخل البارز بمقا ذف وذلك لغرض رمي العدو من خلالها[6].

1- عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 196.

2- مصطفى عبد الله شيحة، مرجع سابق، ص 19.

3- جمعه قاجة، مرجع سابق، ص 196.

4- خالد حمودى، رباط سوسة، مجلة آثار العرب، العدد التاسع والعاشر، الدار الجماهيرية، طرابلس، 1997ف، ص 104.

5- المرجع نفسه، ص 104.

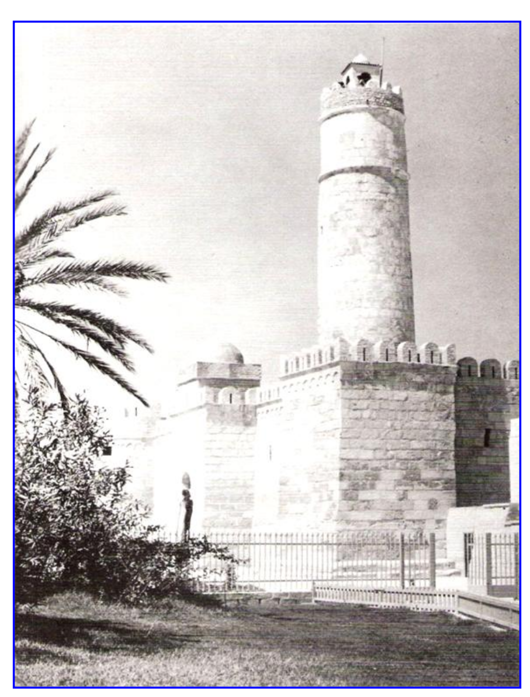
6- جمعه أحمد قاجة، مرجع سابق، ص 196.

ويتكون الرباط من الداخل من صحن في وسطه، ويبلغ أطواله (30×26)متراً ويحيط بالصحن حجرات تتقدمها أروقة مطلة على الساحة، وتعلوها عقود مرتكزة على دعامات، وهذه الحجرات يبلغ عددها (33) حجرة، ولا يوجد بها نوافذ على الخارج وسقفها نصف أسطواني، واثنان منها مفتوحة على بعض ؛ حيث استخدمت كميضأة ومكان لدورة المياه، وكان له طابق علوي يحتوي على غرف مماثلة في كل من الجهات الشرقية والغربية والشمالية، وفي الجهة الجنوبية يوجد مسجد، وهو على شكل مستطيل طوله من الداخل (38) متر، وعرضه (7) أمتار، ومنارة هذا الرباط توجد في الركن الجنوبي الشرقي، وهي تتكون من قاعدة ارتفاعها (75) سنتيمتراً عن مستوى السطح وهي اسطوانية الشكل تضيق قليلاً في أعلاها، ويتوجها برج صغير مربع الشكل، وذلك لإعطاء الإشارات بالنار، أو الدخان، وبذلك كانت المنارة تقوم بوظيفتين، الأولى : الدعوة إلى الصلاة، والثانية إعطاء الإشارات الضوئية والإنذار بوجود العدو واقترابه من المكان[1].

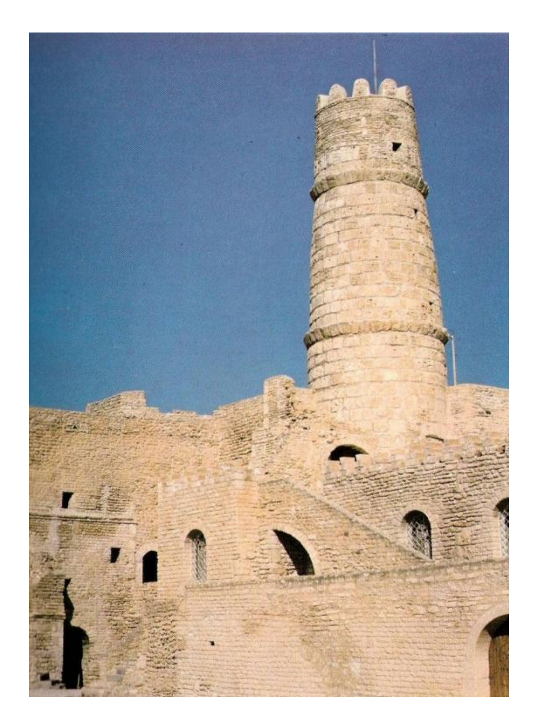
ومن الأربطة الأخرى الموجودة بشمال أفريقيا رباط المنستير في تونس، شكل (5) الذي يعود لسنة (180 هـ-796ف)، وهو يتميز بمنارته الأسطوانية، ويحتوي على طابقين[2].

1- خالد خليل حمودى، مرجع سابق، ص ص 104 - 106.

2- جمعه أحمد قاجة، مرجع سابق، ص 224.



شكل (4) رباط سوسة،
(Hutt, 1977 p: 67)



شكل (5) رباط المنستير،
(Hutt, 1977 p: 34)

الخاتمـة:

تميزت العمائر الدفاعية بالعديد من العناصر الإنشائية، التي أعطت لها الطابع المميز لها على سائر العمائر الأخرى، وهذا راجع للعقلية الفذة، التي يتمتع بها المعماري المسلم والحس الفني، والذوق الرفيع الذي يتحلى به.

من أبرز تلك العناصر الشرفات المسن نة، حيث كانت توضع بأعلى الجدران وكذلك عنصر السقاطات، وهي كالشرفة تماماً إلاَّ أن أرضيتها بها فتحات لرمي السهام والحجارة والزيت المغلي على الأعداء، بالإضافة إلى عنصر المدخل المنكسر، وهو من العناصر المميزة للعمائر الإسلامية ، سواء كانت مدينة ، أو حربية؛ لأن هذا المدخل المنكسر يعطي للمبنى المدني الخصوصية والسترة، وللمبنى العسكري يحد، ويعرقل تدفق العدو داخل المدينة.

كان لبعض المساجد طابع حربي، من خلال ضخامة وارتفاع جدرانه ا، والدعامات التي تتخلل الجدران من الخارج، بالإضافة إلى بعض الأبراج التي كانت لغرض المراقبة والدفاع ، مثل: مسجد سامراء في العراق، ومسجد عقبة بن نافع بالقيروان في تونس ومسجد مراد آغا بتاجوراء في ليبيا، في حين كان للقصور والخانات أشكال دفاعية خاصة بها، وذلك من حيث الأبراج التي في الأركان، وعلى طول الجدران، ونوعية الحجارة، التي كانت تبنى بها هذه القصور والخانات، بالإضافة إلى تصميم المخطط العام لها.

كما أن الأربطة هي الأخرى من ا لعمائر الدينية العسكرية، وهي ابتكار معماري إسلامي، وتمثل هذه الأربطة خطوطا دفاعية متقدمة عن المدن، ثم تطور الأمر بإقامة الأربطة داخل المدن، حيث أصبحت لها عدة مهام منها التحصن، وكأبراج مراقبة ، وفي الاتصالات بين رباط وآخر ؛ لنقل الأخبار السريعة بواسطة إشعال ا لنار ليلاً، والد خان نهاراً ؛ كرباط سوسة، ورباط المنستير في تونس، وأوصي بالمحافظة على هذه المباني الأثرية التي تميز العمارة الإسلامية عن غيرها من العمائر الأخرى، كما يمكن توظيف هذه المباني لما يلائم طبيعتها التي بنيت من أجلها، وذلك لكي لا تهجر، فتندثر مع مرور الزمن.

قائمة المصادر والمراجع

– **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم.

– **المراجع**:

1. أبو صالح ا لألفي: الفن الإسلامي أصوله، فلسفته، مدارسه، دار المعارف، لبنان، 1994ف.
2. آرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966ف.
3. أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1977ف.
4. جمعة أحمد قاجة: موسوعة فن العمارة الإسلامية، دار الملتقى، سوريا، 2000ف.
5. رمزية محمد الأطرقجي : بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1975ف.
6. سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986ف.
7. صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1984ف.
8. طاهر العميد: علاقة العمارة العربية قبل الإسلام بالعمارة الإسلامية، أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، دار الحكمة، بغداد، 1991ف.
9. عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، دار جروس برس، بيروت، 1988ف.
10. عبد الناصر ياسين : الفنون الزخرفية الإسلامية بمصر في العصر الأيوبي، دار الوفاء، الإسكندرية، 2002ف.
11. ك. كريزويل: الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة : عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1984ف.
12. مصطفى عبد الله شيحة : الآثار الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992ف.
13. نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، لبنان، 1977ف.

- **المجلات والدوريات:**

1. خالد خليل حمودي : رباط سوسة، مجلة آثار العرب، العدد التاسع والعاشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، 1997ف.
2. عبد الكريم فرج: القلاع الأثرية في سوريا، مجلة آثار العرب، العدد السابع والثامن، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، 1994ف.